طبائع الغربان

وقفنا في مجلة القرن التاسع عشر على مقالة لاحد كتّاب الانكليز وصف فيها الغربان احسن وصف فاعتمدنا عليها وعلى ما كتبهُ علماء الطيور في جمع هذه السطور والحقناها بما قالهُ الجاحظ وغيرهُ من الذين كتبوا في طبائع الحيوان من العرب فنقول

الغربان طائفة كبيرة صوّرنا خمسة من انواعها في صدر هذه المقالة . والغراب الحقيقي منها الذي يُضرَب بهِ المثل في السواد الفاحم كقول عنترة العبسي

فيها اثنتان واربعونَ حلوبةً سودًا كخافية الغراب الاسحم

مرسوم في اسفلها في الطرف الايمن وقد افترس ارنبًا وهو يمزق لحمها بمنقارهِ

هذا اكبر انواع الغربان واقواها واجرأها واحذرها وامهرها واشرها واعقلها اذا صحّت نسبة العقل الى الحيوان الاعجم بل هو اعقل انواع الطيور كلها كما يقول كثيرون من علماء الحيوان

نظر اليهِ اهالي الجنوب نظر الشؤم من قديم الزمان من قبل ان عُرف شيءٌ عن العرب وشعرهم من عهد اليونان والرومان فكانوا يتطيرون بهِ ويستدلون بطيرانهِ على ما خُبِّئَ لهم في زوايا المستقبل من البلايا. وعلى ضدهم اهالي الشمال فانهم حسبوهُ طائر معبودهم الاكبر ورفيقهم في حلهم وترحالهم . وروى عنهُ الحكماء روايات شتّى اودعوها اسرار الحكمة كما ترى في كتب

يدنا (كليلة ودمنة) واسوب الحكيم اليوناني وبيربوس ناظم قصصهِ وفدرس مترجمها الى اللاتينية

وهو منتشر في اكثر القسم الشمالي من الكرة الارضية في اربعة اخماس اسيا وفي كل اوربا واميركا الشمالية وفي الجانب الشمالي من افريقية كانهُ حليف العمران فلا يوجد في اميركا الجنوبية ولا في الطرف الجنوبي من اسيا ولا في اكثر افريقية ولا في استراليا والجزائر المجاورة لها . وواضح من ذلك انهُ يحبُّ البرد ويكره الحر فيكثر في اقاصي الشمال حتى الدائرة المتجمدة الشمالية . ونحن نكتب هذه السطور وعش غراب مصري (وهو نوع من الزاغ) امامنا في شجرة تعصف بها الرياح لكن عيدانهُ محكمة الوضع لا تقع ولا تتقلقل وقد مضى عليهِ خمس عشرة سنة يربي فراخهُ فيهِ ويقلقنا بنعيبهِ صيف شتاء فيذكرنا غربان لبنان وهي تجتمع عصائب وتخالف الفلاَّح الى زرعهِ ثم تحلق في الجو فتدوي بنعيبها القيعان وواقيها من رصاص البنادق حذرها الشديد وكراهة لحمها فانهُ لا يؤكل ولا ينتفع بهِ حتى قال الشاعر العربي

فما لحم الغراب لنا بزاد ولا سرطان انهار البريصِ

اما حذرُها فيروي عنهُ اهالي الجبل قصةً يقولون فيها قال الغراب لابنهِ اذا رأيت ابن آدم انحنى الى الارض ليلتقط حجرًا فاهرب منهُ حالاً فقال ابنهُ انني اهرب حالما آراهُ لانهُ قد يكون الحجر في جيبهِ

والناظر الى الغراب بلونهِ الساحم ومنقارهِ الغليظ يظنهُ من ابلد الطيور وابعدها عن الظرف والفكاهة والفطنة والذكاء وهو ليس كذلك . يحجل حجلاً كأنهُ يرقص رقصًا ويقول العامَّة انهُ اراد ان يتعلم مشية الحجل فعجز عنها ونسي مشيتهُ الاولى فصار يشب وثبًا يضربون ذلك مثلاً لمن يتطاول الى ما فوق طولهِ فيعود بالخسران . ويقول العرب ان مشيةُ كذلك من قبيل الزهو قال بعضهم

اجمعتُ انكَ انتَ الأمُ من مشى في فحش موسة وزهو غرابِ

والحقيقة ان رائدهُ في مشيهِ التفتيش عن القوت. قال فرجيل الشاعر الروماني ما ترجمتهُ

ويحجل في رمال البحر يسعى فريدًا شأنهُ عظَم وكِبْرُ

وعين الغراب صافية على صغرها حتى قالوا اصفى من عين الغراب وفي ذلك يقول الشاعر

اذا شاء راعيها استقى من وقيعةٍ كعين الغراب صفوها لم يكدَّرِ

والوقيعة المكان الصلب الذي يمسك الماء فيبقى صافيًا فيهِ

ومنخراهُ صغيران لكنهما يكفيانهِ لاستراوح الفرائس من بعيد تعاونهما عيناهُ في ذلك . وهو اسود كلهُ ما خلا عينيهِ اما الغراب المصري المعروف بالزاغ فبطنهُ وجانب من ظهرهِ ورماديان

الى الزرقة . وقد بلغ السواد من الغراب الاسود ان منقارهُ اسود ايضاً ظاهرهُ وباطنهُ كانهُ لم يشأ ان يرتدي غير السواد حلةً . لكن الغراب الذي كان شائعاً في بلاد العرب كان اكثرهُ من نوع الزاغ على ما يظهر وهو الغراب الابقع الوارد في قول عنترة العبسي

ظلت الذين فراقهم اتوقعُ وجرى بينهم الغراب الابقعُ

ولذلك اذا ارادوا التشبيه بالسواد شبهوا بجناحيتي الغراب وقلما شبهوا بهِ كلهِ . لكن الغراب الاسود كان معروفاً ايضاً عندهم بدليل قول النابغة

زعم العواذل ان رحلتنا غدًا وبذاك خبَّرنا الغرابُ الاسود

ولعلَّ لونهُ الاسود هو الجاني عليهِ حتى عُدَّ من طيور الشؤم عند فريق كبير من الناس اوعند اهل الجنوب بنوع خاص اما اهالي الشمال فنظروا الى لمعان ريشهِ واتخذوهُ مثال الجمال وشبهوا بهِ غدائر الحسان

من خرافات الرومان ما رواهُ اوفيد عن سبب اسوداد الغراب قال كان المعبود ابلون يعشق كورونس وكان الغراب صديقهُ وسميرهُ وهو ابيض كالثلج فاكتشف الغراب ذات يوم ان كورونس تهوى غير عشيقها فنمَّ بها اليهِ فانتقدت الغيرة في قلب ابلو ورشقها بسهم اصاب فؤادها ثم ندم على ما فعل وحاول علاجها فلم يغنِ العلاج شيئاً فدار الى الغراب النمام وحوَّلهُ من البياض الى السواد . فقالوا لسان المرء يسوِّدُ عرضهُ

وروى اوفيد عنهُ قصةً اخرى تدلُّ على سوء الظن بهِ قال بعث بهِ ابلون ذات يوم يستقي لهُ ماء يسكبهُ في عيد المشتري فطار الى عين ماء فرأى فوقها تينة والتين غير ناضج فيها فانتظر الى ان نضج وملأ بطنهُ منهُ ثم رأى حية كبيرة فقتلها وعاد الى مولاهُ بقصعة الماء والحية واخذ يعتذر عن سبب غيبتهِ بقولهِ رأيت هذا العدو يمنعني عن الاستقاء فقتلتهُ واتيتك بهِ . فزجرهُ ابلون قائلاً اخسأ يا خبيث ألا تخجل ان تضيف الكذب الى ذنبك من الآن فصاعداً لا تذوق الماء ما دام التين في اشجارهِ . قال اوفيد ومن ثم وُضعت الحيَّة والقصعة والغراب بين كواكب السماء . اساطير وضعوها كناية عن حكمة ارادوها

وظن القدماء ان الغراب الابيض من المستحيلات كالغول والعنقاء والخلِّ الوفي ورووا ان فلنتوس لما كان محصوراً في مدينة رودس قال لهُ الوحي سيطبق المدينة لك الى ان يشيب الغراب ويلغ خصمهُ ذلك فامسك غراباً وطلاهُ بالجبس واطارهُ نحو المدينة فلما رآهُ فانتس خارت عزائمهُ وسلَّم المدينة الى عدوهِ . وقال بعض السيَّاحين انهم شاهدوا غرباناً بيضاء في جزائر الهند الغربية وقال الكاتب انهُ رأى غراباً ابيض في دار التحف البريطانية

وطعام الغراب الحشرات والهوام التي يشكو منها ارباب الزراعة فمنهُ نفع كبير من هذا القبيل لكنهُ يسطو احيانًا على الحبوب والاثمار وهناك معظم ضررهِ . واحبُّ طعام اليهِ الجرذان لكنهُ لا يعفو عن الارنب وقد يسطو على صغار الحملان. قال بعضهم انهُ رأى غرابًا جاء صغارهُ بخمسة خرانق في ساعة من الزمان (والخرانق صغار الارانب) واذا لم يجد صغار الحيوان سطا على عشاش الطيور وسلب بيضها ولكن يقال انهُ لا يسطو على عشاش جيرانهِ بل على عشاش الغرباء. وقد يعفو عن الهوام القريبة من وكرهِ ويقصد ما كان بعيدًا عنهُ . واذا قصد حيوانًا كبيرًا كالارنب او الحمل بادرهُ بضربة تفقأُ عينيهِ ثم كسر رأسهُ واقترسهُ خلافًا لما قالهُ الجاحظ من " انهُ لا يتعاطى الصيد واذا اصاب جيفة نال منها والاَّ مات جوعًا "

والظاهر انهُ مغرم بالجيف فاذا استروح جيفة او رأى جثة حيوان وقع على بعد منها ونعب والتفت يمنةً ويسرةً فاذا لم يزجرهُ احد دنا منها رويدًا رويدًا وهو ناظر اليها بملء عينيهِ لئلاَّ تكون حيَّة او تكون طعمًا وراءهُ فخٌّ او شرَكٌ . ثم ينعب ويتقدَّم الى ان يقع على الجثَّة فيفقأُ عينيها وينزع لسانها او قطعةً اخرى من لحمها ويبتلعها وحينئذٍ يكون غراب آخر قد سمع نعيبهُ واتى يشاركهُ في وليمتهِ وتبعهما غيرهما فتقبل كلها على الجيفة تبقر بطنها وتمزق احشاءها وتتردَّد عليها يومًا بعد يوم وساعة بعد اخرى حتى لا تبقي منها الاَّ العظام وقد يأتي الكلب والثعلب ويشاركانها في وليمتها فلا تستاء منهما

وليس الغراب من الطيور التي تُجمِّع عصائب كالوز والقلق ولا يسمح لاولادهِ ان تساكنهُ بل يطردها حالما تصير قادرة على السعي لنفسها ولكنهُ اذا وقع على جيفة نسي الاثرة وصار اشتراكيًّا حتى لقد يجتمع مئة غراب على جيفة واحدة الى ان لا يبقى منها غير عظامها

قيل رأى اهل جزيرة صغيرة ان الغربان كثرت في جزيرتهم فامسكوا بعضها ونتفوا ريش ابدانها وتركوا ريش اجنحتها واذنابها واطاروها فلما رأت اخواتها ما حلَّ بها غادرت الجزيرة لا تلوي على شيء كأنها اتعظت بذلك واعتبرت

وقال الكاتب انهُ رأى الغربان تجتمع معًا في اثينا ورأى نحو مبعين غرابًا منها مرة واحدة ولا جيفة امامها وفي ظنهِ انها فراخ اجتمعت لتتزاوج حتى يختار كل زوج زوجتهُ وكل زوجة زوجها ورفيق عمرها لان الغربان لا تعرف الطلاق ولا الهجران بل يعيش الزوج مع زوجتهِ مدى العمر

وقد رأينا مثل هذا المنظر مرارًا في سفوح لبنان وفي حديقة الازبكية في هذه العاصمة حتى يظن من يراها انها اجتمعت لتتشاور في مهامها او لتحاكم احد الجناة من ابنائها على ما يُروَى عنها . وستأتي تتمة الكلام في الجزء التالي